سيرة الشيخ محمّد رشيد رضا وأبرز منجزاته[١]

١٨٦٥–١٩٣٥

لم يترك لنا الشيخ محمّد رشيد رضا سيرة له مستقلّة (Auto-Biography) باستثناء نبذة مقتضَبة له في كتابه "المنار والأزهر"، بالرغم من أنّ إحدى الجمعيّات العلميّة في شيكاغو طلبت منه، أكثر من مرّة، ترجمة لحياته فلم يكتبها زاهدًا في الشهرة[٢]. وهذا لا يعني أنّ صاحب الترجمة لم يتحدّث عن نفسه. لقد ترك، في أعداد "المنار"، تراثًا أدبيًّا ضخمًا عن ذكر هجرته الديار الشاميّة إلى مصر، وعن جميع رحلاته العديدة إلى الأقطار الإسلاميّة المختلفة، حتّى إنّه لم يدعْ شاردة ولا واردة تتعلّق بشخصه إلّا وتحدّث عنها بإسهاب مفصّل، وأعادها إلى الأذهان وكرّرها المرّة تلو المرّة.

ولعلّه من المفضّل، في مثل هذه الحالة، ألاّ يُرْكَنَ لمثل هذه الأقوال من الناحية التاريخيّة، لِما نعلم من غرور النفس البشريّة التوّاقة دائمًا إلى تمجيد نفسها، وادّعاء البطولات الفارغة، ولِما لحبّ الذات المتأصّل في أعماق أعماقها من ميل لتبرير المواقف الضعيفة، والابتعاد عن الموضوعيّة في تحليل الأمور، بينما يتطلّب التأريخ الابتعاد الكلّيّ عن الهوى كي لا تُشوَّه الحقائق، وتُطمَس، وتندثر.

نشأته

وُلِد محمّد رشيد رضا يوم الأربعاء، السابع والعشرين من شهر جمادى الأول سنة ١٢٨٢ هـ. الموافق الثامن عشر من تشرين الأوّل سنة ١٨٦٥، في قرية القلمون[٣]، الواقعة على شاطىء البحر على بعد زهاء خمسة كيلومترات إلى جنوب طرابلس الشام، حيث نشأ وترعرع.

يحدّثنا عن طفولته في كتاب **المنار والأزهر** بأسلوب بسيط، لا تعقيد فيه ولا إبهام، مشوّق يجتذب القارىء ويسترعي انتباهه، فيرسم لنا صورة حيّة لطفل شديد الحياء يأنف اللعب مع أترابه، ويصون لسانه عن المجون، ولا يسمح لأحد –أيًّا كان– أن يتلفّظ أمامه بكلام بذيء. ويعود بعد ذلك فيعلّل حسنات هذه الخصال وسيّئاتها، ويستخلص منها العبر لإتمام الإطار الخارجيّ لهذه الصورة التي رسمها لنا بكلماته السلسة، ولولا خشيتي الإطالة لأوردت هذا القسم بحذافيره.

[[١] نقلًا عن خوري، يوسف قزما، "الشيخ محمّد رشيد رضا، ١٨٦٥– ١٩٣٥" في **أعلام النهضة الحديثة، الحلقة الثانية**، الطبعة الأولى، بيروت، دار الحمراء للطباعة والنشر، ١٩٩١، ص ١٢٣– ١٣٨.]

[٢] محمّد رشيد رضا، **المنار والأزهر**، القاهرة، مطبعة المنار، سنة ١٩٣٤، ص ٢٥٤، وص ١٩٥.

[٣] شاكر، محمّد، "أستاذنا الإمام حجّة الإسلام– السيّد محمّد رشيد رضا"، **المقتطف**، ج ٨٧ (١٩٣٥) ص ٣١٨.

لقد كان، منذ صغره، قليل الرغبة في اللعب مع أقرانه – في القرية وفي المدرسة– الشيء الذي جعله يمتنع من مشاركتهم السباحة، التي لم يتقنها بالرغم من كون دارهم على شاطىء البحر. ويستخلص من ذلك بأنّ حياءه هذا أفاده من ناحية الأدب وصون اللسان، ويعلّل لنا كثرة نسيانه لأسماء الناس بأنّه عائد إلى عدم الاهتمام بالتعرّف عليهم، ويعزو ذلك إلى حبّ العزلة الذي أضرّه، فيذكر أنّه عاش عدّة سنين بين جماعة من طلاّب العلم في إحدى المدارس ولم يحفظ أسماءهم جميعًا. وخشية أن يترك في الأذهان فكرة سيّئة عن مقدرته العقليّة يعود فيستدرك ويخبرنا بأنّه كان سريع الفهم، يتألّم ويتضجّر من إعادة الأساتذة شرح المواضيع التي كانوا قد أوضحوها قبلًا، وبأنّه كان قويّ الذاكرة سريع الاستعاب لكلّ ما يَسمع ويَقرأ، مع ضعف استعداده لحفظ الجزئيّات كالأعلام والأرقام والحوادث حتّى إنّه نادرًا ما كان يستطيع أن يحفظ أكثر من بيت واحد من الشعر لمجرّد سماعه مرّة واحدة، ويستطرد قائلًا بأنّ الذي زاده ضعفًا على ضعفه هو قلّة اكتراثه بمعرفة الناس، وكلّ ما يعتقد بأنْ ليس له فيه فائدة علميّة أو أدبيّة[١].

تحصيله العلم

تلقّى قواعد الحساب والخطّ والقراءة، بما فيها قراءة القرآن الكريم، في مدرسة قريته القلمون، ثمّ التحق بمدرسة إبتدائيّة تابعة للدولة في مدينة طرابلس، ولكنّه غادرها لأنّه، على ما يظهر، لم يشأ أن يخدم الدولة، ولانّ جميع الدروس فيها كانت باللغة التركيّة. فالتحق في السنة التالية بالمدرسة "الوطنيّة الإسلاميّة" لمؤسّسها الشيخ حسين الجسر[٢]، وكان مستوى التعليم فيها أرقى من الأولى، بالإضافة إلى أنّ التعليم في الثانية كان يجري باللغة العربيّة، يُضاف إلى ذلك تعليم اللغتين التركيّة والإفرنسيّة[٣]. وهكذا تلقّى العلم "على الطريقة التي كان يتلقّى العلم بها الشيوخ والعلماء"[٤]، ولم يهتمّ كثيرًا باللغتين التركيّة والإفرنسيّة، بالرغم من حفظه كلّ ما فُرِض عليه من دروسهما، ثمّ ندم على عدم إتقانه للغة الفرنسيّة بعد أن أدرك أنّ لها فوائد جمّة في خدمة الإسلام[٥].

كان، أثناء تحصيله للعلم، مولعًا بمطالعة كتب الأدب، وبصورة خاصّة كتاب **إحياء علوم الدين** للإمام الغزالي الذي أثّر فيه تأثيرًا عظيمًا، حتّى إنّه كان يُكثِر من مراجعته ويقرأه للناس. فقد ذكر أنّه، بإرشاد الغزالي، "كان لهذا العاجز طريقة خاصّة في الطلب (طلب العلم) مقرونة بالنيّة الصالحة، كان من أثرها ما عبّر عنه شيخنا الشيخ حسين الجسر بقوله، في ملإٍ من الناس بدار علي أفندي السمين بطرابلس الشام: إنّ فلانًا ساوى، في سنة واحدة، مَن سبق لهم الاشتغال عليّ سبع سنين من أذكياء الطلاّب، والفضل في هذا، بعد عناية الله وهدايته، لأبي حامد الغزالي جزاه الله خير الجزاء"[٦]. واتّفق له أنْ كان يقلّب في أوراق والده، فرأى عددَين من أعداد جريدة "العروة الوثقى"، التي صدرت في باريس سنة ١٨٨٤ لمدير سياستها السيّد جمال الدين الأفغاني ومحرّرها الأوّل الشيخ محمّد عبده، فقرأهما بشوق ولذّة فائقين، ففعلا في نفسه فعل السحر، فبحث عن الأعداد الباقية فوجدها في مكتبة أستاذه الشيخ حسين الجسر

---

[١] **المنار والأزهر**، ص ١٣٧-١٣٨.

[٢] وصفه المقتطف بأنّه "مشهور في البلاد الشرقيّة بالعلم والفضل، موصوف بالزهد وأصالة الرأي". المقتطف ج ٨ (١٨٨٤) ص ٤٩٥.

[٣] **المنار والأزهر**، ص ١٣٩.

[٤] **المنار** ج ٢٨ (١٩٢٧) ص ٦٥.

[٥] **المنار والازهر**، ص ١٣٨.

[٦] **المنار** ج ١٠ (١٩٠٧) ص ٥٩٥.

فاستنسخها وقرأها ثمّ أعاد قراءتها فانتقل "بذلك إلى طريق جديد في فهم الدين الإسلاميّ على أنّه دين روحانيّ جسمانيّ، أخرويّ دنيويّ، في مقاصده هداية الإنسان إلى السيادة في الأرض بالحقّ ليكون خليفة الله في تقرير المحبّة والعدل"[١].

وعند عودة الشيخ محمّد عبده من أوروبّا، إثر توقّف جريدة "العروة الوثقى"، وأثناء مروره في طرابلس، زاره محمّد رشيد رضا، وكان وقتئذ لا يزال طالبًا في المدرسة "الوطنيّة الإسلاميّة"، فأُعجِب بكلامه. وزاره مرّة ثانية إذ جاء الشيخ محمّد عبده إلى لبنان مصطافًا، فتذكّر الشيخُ تلاقيهما الأوّل، وكان صاحب الترجمة يلازمه من أوّل النهار حتّى وقت النوم طيلة [طَوال] إقامته في طرابلس[٢].

ولكي تكون الصورة التي رسمها لنا كاملة عن تحصيله للعلم، أُحبّ أن أَذكر أنّه كان يحثّ في مجلّته على مطالعة كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، وكتاب نهج البلاغة لعليّ بن أبي طالب، والجزء الثالث من كتاب **إحياء علوم الدين**، إنْ لم يُطالَع الكتاب كلّه[٣]، حتّى إنّه اختلف مع أستاذه الشيخ حسين الجسر عندما اقترح محمّد رشيد رضا عليه استبدال كتاب المقامات للحريري، المقرَّر للدراسة في المدرسة الوطنيّة الإسلاميّة، بهذه الكتب الثلاثة ولم يوافق الأستاذ على ذلك. وهذا ما يدلّنا على أنّه كان للكتابَين الأوّلين منزلة في نفسه يُضاهِيا منزلة كتاب **إحياء علوم الدين**.

ويعترف لنا أيضًا بأنّه كان لمجلّة "المقتطف" العلميّة تأثير عليه فيقول:"نعم، أنا أعترف للمقتطف بالسبق والتبريز في العلم، وأزيد على ذلك الاعتراف بأنّني قد أستفدت من المُقْتَطَف في أوّل عهدي بطلب العلم ولا أزال أستفيد منه. إنّني لمّا دخلت المدرسة الوطنيّة في طرابلس الشام، وذلك أوّل عهدي بطلب العلم، رأيت أستاذنا الشهير الشيخ حسينًا الجسر مشترِكًا في المقتطف، ومواظِبًا على قراءته. فكانت تلك أوّل معرفتي بالمقتطف وصرت أستعيره بعد ذلك وأقرأه، فاستفدت من مباحثه فوائد عقليّة وصحيّة واجتماعيّة، ولا ازال أعتمد على ما يكتبه في معرفة أطوار التجدّد العلميّ العصريّ"[٤].

هجرته إلى مصر وإصداره "المنار"

عندما أُجيز بالتدريس، وأُعطِيَ شهادة "العالميّة" التي تمنحها المدرسة الوطنيّة الإسلاميّة في سنة ١٨٩٦، أزمع على الرحيل إلى مصر للاتّصال بالشيخ محمّد عبده، ملاكه الحارس، بعد أن فقد أمل الاتّصال بالسيّد جمال الدين الأفغاني، لتلقّي الحكمة عنه والوقوف على رأيه ونتائج إختباراته فيما [في ما] يتعلّق بالإصلاح الإسلاميّ. وهكذا سافر إلى أرض الكِنانة، وكان وصوله إلى ميناء الإسكندريّة مساء الجمعة (٣ كانون الثاني سنة ١٨٩٨)، ووصل إلى القاهرة يوم السبت (١٨ كانون الثاني). وفي ضحوة يوم الأحد، ذهب إلى دار الشيخ محمّد عبده في الناصريّة لزيارته، وهناك صارَحَه القول عن الغرض من هجرته، وأصبح يتردّد على داره، فيُقابِله الشيخ كما يُقابِل بعض خواصّ خلاّنه[٥]، وتمكّنت أواصر الصداقة بينهما فاستشاره في اختيار اسم للجريدة التي عزم على إصدارها، وقدّم له عدّة أسماء، فوقع اختيار الشيخ محمّد عبده على اسم "**المنار**"[٦].

---

[١] رضا، محمّد رشيد، **تاريخ الأستاذ الإمام**، القاهرة، مطبعة المنار، ١٩٣١، ج ١ ص ٨٤.

[٢] نفس المصدر، ج ١ ص ٩٩٧.

[٣] **المنار** ج ٤ (١٩٠١) ص ٦٦.

[٤] **المنار** ج ١٩ (١٩١٦) ص ١١٢.

[٥] تاريخ الأستاذ الإمام، ج ١ ص ٩٩٨.

[٦] نفس المصدر، ج ١ ص ١٠٠٥.

مكث في القاهرة يحرّر "**المنار**"، ولم يغادرها طيلة [طَوال] إحدى عشرة سنة، إلى أن قامت جمعيّة الاتّحاد والترقّي بثورتها على السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٨ وأُعلِن الدستور، فسُمِح له حينئذ بزيارة مسقط رأسه "ووطن المنشإ" كما كان يسمّيه، ويعني بذلك الديار الشاميّة[١]. لقد عاد إلى وطنه الأوّل وهو يحمل رسالة يريد بثّها في أبناء أمّته لإيقاظهم من ثباتهم العميق، ليتعرّفوا على حقيقتهم بعد أن نالوا الحرّيّة عند إعلان الدستور فيقول:"في هذا اليوم صار يصحّ إطلاق لفظ الأمّة عليكِ ولم تكوني من قبله إلّا عبارة عن أفراد متفرّقين لا يصدق عليهم هذا اللفظ على وجه الحقيقة"[٢]. خطب محمّد رشيد رضا أثناء زيارته للديار الشاميّة على منابر جوامع طرابلس وبيروت ودمشق وحمص، بالإضافة إلى الخُطب التي كان يلقيها في الأندية والجمعيّات السياسيّة (لجمعيّة الاتحاد والترقّي والجمعيّة العثمانيّة، في كلّ من طرابلس وبيروت)[٣]. ولولا حادثة ضربه بعصا، وإطلاق عيار ناريّ عليه في طرابلس[٤]، ولولا اضطراره لمغادرة دمشق، بعد أن نصحه أخلص خلاّنه بذلك، خشية الفتنة إثر ما جرى له في الجامع الأمويّ أثناء إلقائه خطبة الجمعة واعتراض أحد المصلّين عليه، لكانت رحلته ناجحة في إيصال صوته إلى أسماع مَن منعت السلطة الحميديّة عنهم قراءة ما كان يبثّه في "**المنار**". لقد ترك لنا سجلًّا عن رحلته هذه، وحدّثنا عن الحالة الإجتماعيّة في بيروت وطرابلس ودمشق، وعن أحوال المسلمين وعاداتهم واستعدادهم للإصلاح[٥].

المنار والإصلاح الإسلاميّ

أُنشِيء "**المنار**" في مصر سنة ١٨٩٨، وصدر العدد الأوّل منه في الثاني والعشرين من شهر شوّال سنة ١٣١٥ هـ ساطعًا بأنوار غريبة مرغوبة، إلّا أنّها مؤلّفة من أشعّة قويّة كادت تذهب بالأبصار"[٦]، فأصبحت أوّل سنته غرّة ذي القعدة، ثمّ أوّل محرّم، "فصارت السنة الهجريّة هي سنة المنار الحسابيّة منذ سنته الخامسة أي سنة ١٣٢٠ هـ"[٧] (١٩٠٢ م). وفي سنته الثانية، وما بعد، وضع لها شعارًا: "إنّ للإسلام صُوًى ومنارًا كمنار الطريق"، حيث أخذ يظهر على كلّ عدد يصدر منه. ويفسّر لنا "الصُوَّة" بأنّها حجر يكون علامة في الطريق يهتدي بها المارّة، والمنار بأنّه العَلَم الذي يُوضَع بين الشيئين من الحدود فيقول: "إنّا قد اقتبسنا اسم المنار من الحديث الشريف تفاؤلًا بأن يكون مبيِّنًا لصُوى الإسلام وناصبًا لأعلامه، وموضحًا لنور الحقيقة التي نحتاج إليها في حياتنا المِلّيّة والإجتماعيّة، والله الموفّق المعين"[٨]. لقد هدف محمّد رشيد رضا، من وراء إنشاء مجلّة "**المنار**"، أن "ترشد المسلمين إلى النظر في سوء حالهم، وتنذرهم الخطر المهدِّد لهم في استقبالهم، وتذكّرهم بما فقدوا من سيادة الدنيا وهداية الدين"[٩]. ولقد قدّمها في السنة الثانية بما يلي:

"وهاكم هذه المجلّة التهذيبيّة، الخادمة لجامعتكم المِلّيّة والوطنيّة، تنتقي لكم ما هو أمسّ بمصلحتكم، وأقرب إن شاء الله تعالى لمنفعتكم، وأدعا- بفضل الله تعالى- إلى نهضتكم، وأرجا بتوفيق الله عزّ وجل- لجمع كلمتكم"[١٠]. وكان صاحب المنار يكتفي، في

---

[١] **المنار** ج ٢١ (١٩٢٠) ص ٣٧٨.

[٢] **المنار** ج ١١ (١٩٠٨) ص ٨٦٠.

[٣] **المنار** ج ١٢ (١٩٠٩) ص ١٦-١٧

[٤] **المنار** ج ١١ (١٩٠٨) ص ٧٩٤-٧٩٥

[٥] "سياحة صاحب المنار في سوريا"، المنار ج ١١ (١٩٠٨) ص ٧٠٦-٧١٦، و٨٧٤-٨٧٩، و٩٣٦-٩٥٣.

[٦] رسالة الشيخ حسين الجسر إلى صاحب **المنار**. **المنار** ج ١٢ (١٩٠٩) ص ٦٨٦.

[٧] **المنار** ج ١٠ (١٩٠٧) ص ٧١٥.

[٨] **المنار** ج ١٠ (١٩٠٧) ص ٦٢٣-٦٢٤.

[٩] **المنار** ج ١٢ (١٩٠٩) ص ٦٩١.

[١٠] **المنار** ج ٢ (١٨٩٩) ص ٢-٣.

أكثر المسائل التي يعالجها، أن يعرضها بطريقة خطابيّة كقوله: "حسبك، حسبك، هبّ من سباتك واستيقظ من هجوعك فقد ولّت حنادس[1] الجهالة وأشرقت شمس المعرفة... لا يَهولَنّك ما تسمع، ولا يَرْدَعَنَّك ما ترى ، واعلم أنّ هذا العصر عصر العلم والعمل"[2]. ويدلّنا على أنّه أخذ هذا الأسلوب الإجماليّ والزواجر المنبّهة التي كانت تَرِد في أكثر المقالات الإفتتاحيّة من القرآن الكريم "وقد اقتبسنا أسلوب الإجمال قبل التفصيل وقرع الأذهان بالخطابيّات الصادعة من القرآن الحكيم، فأكثر السور المكّيّة لاسيّما المنزَلَة في أوائل البعثة قوراع تفحّ الجنان وتصدع الوجدان"[3].

قاوم الشيخ محمّد رشيد رضا، على صفحات "**المنار**"، البدع والخرافات بكلّ ما أوتي من قوّة، وشدّد على ضرورة التعليم والتربية حتّى إنّه فضّل تشييد المدارس على بناء الجوامع[4]، ناهيك عن حملته المركّزة على العقائد الزائفة. وحدّد لنا الغاية من إصدار المنار بقوله: "فهذا صوت صارخ بلسان عربيّ مبين، ونداء حقّ يقرع مع الناطق بالضاد مسامع جميع الشرقيّين... وغرضها الأوّل الحثّ على تربية البنات والبنين لا الحطّ على الأمراء والسلاطين. والترغيب في تحصيل العلوم والفنون لا الاعتراض على القضاة والقانون. وإصلاح كتب العلم وطريقة التعليم، والتنشيط على مجاراة الأمم المتمدّنة في الأعمال النافعة، وطرق أبواب الكسب والاقتصاد، وشرح الدخائل التي مازجت عقائد الأمّة"[5]. وافقت مجلّة "**المنار**" جريدة "**العروة الوثقى**" في تعاليمها التي وضعتها للوحدة الإسلاميّة، وكانت امتدادًا لها إلاّ في المسألة المصريّة والتحريض على الإنكليز. يقول محمّد رشيد رضا: «وفّقنا الله تعالى في العام الماضي لإنشاء "**المنار**"، لإحياء تعاليم "**العروة الوثقى**"، فوضعنا قاعدة على أساسها، وأضأنا قمّته بنبراسها إلّا ما كان فيها من السياسة التي تتعلّق بالمسألة المصريّة والتحريض على الإنكليز، فإنّ هذا الأمر ذهب بذهاب وقته. و**العروة الوثقى** نفسها صرّحت مرارًا بأنّ تلك الفرصة، إذا ذهبت، لا تكاد تعود، ويستقرّ قدم الإنكليز في مصر وقد كان... ولا ريب أنّ المسألة المصريّة ليست في هذا العام كما كانت سنة ١٣٠١ هـ (١٨٨٤ م). أمّا المسألة الإسلاميّة فهي هي، بل تقدّمت إلى الأمام بالنسبة إلى ما كانت عليه في ذلك العام"[6].

الوحدة الإسلاميّة

كان صاحب الترجمة، قبل وقوع الإنقلاب العثمانيّ وخلع السلطان عبدالحميد الثاني سنة ١٩٠٩، يدعو إلى توحيد العقائد والتعاليم الأدبيّة، والأحكام القضائيّة والمدنيّة، واللغة، بواسطة تأليف جمعيّة إسلاميّة تحقّق الإصلاح المنشود والوحدة الكبرى–الجامعة الإسلاميّة– التي دعا إليها السيد جمال الدين الأفغاني وسعى لتحقيقها عن طريق تنبيه حكّام الحكومات المسلمة المستقلّة إلى الاتّحاد[7]. وأهمّ أركان هذا الإصلاح الإسلاميّ هو "جمع المسلمين على عقيدة واحدة، وأصول أدبيّة واحدة، وقانون شرعيّ واحد، لا يحكم عليهم غيره في أيّ نوع من أنواع الأحكام، ولغة واحدة. ويتوقّف هذا الإصلاح على تأليف جمعيّة إسلاميّة تحت حماية الخليفة يكون لها شُعَب في كلّ قطر إسلاميّ، وتكون عُظمى شُعَبها في مكّة المكرّمة التي يؤمّها المسلمون في جميع أقطار الأرض، ويتآخون في

[[1] حنادِس: جمع حِنْدِس وهو الليل شديد الظلمة.]
[2] **المنار** ج ١ (١٨٩٨) ص١.
[3] **المنار** ج ١٢ (١٩٠٩) ص ٦٩٠.
[4] **المنار** ج ٢ (١٨٩٩) ص ١٦٤، وج ٦ (١٩٠٣) ص ١٥٢.
[5] **المنار** ج ١ (١٨٩٨) ص ١-٢.
[6] **المنار** ج ٢ (١٨٩٩) ص ٣٤٠.
[7] **المنار** ج ٢ (١٨٩٩) ص ٣٣٧.

مواقفها ومعاهدها المقدّسة، ويكون أهمّ اجتماعات هذه الشُعْبة في موسم الحجّ الشريف"[1]. وحدّد لهذه الجمعيّة أصولَ وظائفها وأعمالها ونتائجها بما يلي: "أمّا الأصول فهي توحيد العقائد والتعاليم الأدبيّة والتهذيبيّة، والأحكام القضائيّة والمدنيّة، واللغة. وأمّا نتائجها فأهمّها اتّحاد الحكومات الإسلاميّة"[2]. ويعزو تخلّف المسلمين إلى الأثر الدينيّ، ليس لأنّ طبيعة الدين هي التي تحتّم هذا التأخّر، بل إنّ ذلك التأخّر يعود إلى الانحراف عن الشرائع الدينيّة، فيقول: "وهم (الكتّاب المسلمون) يوافقون كتّاب أوروبّا على قولهم إنّ للدين أقوى الأثر في هذا التأخّر، ولكنّهم يخالفونهم في وجهه. فأولئك يزعمون أنّ طبيعة الدين تقتضي هذا، ونحن نُوقِنُ أنّ طبيعته تقتضي التقدّم، وأنّ التأخّر ما جاء إلاّ من الانحراف عن سننه، ولبسه كما يُلبَس الفرو مقلوبًا، كما قال الإمام علي كرّم الله وجهه"[3]. وبالرغم من أنّه يحاول ادّعاء الاستقلال الفكريّ بأنّ آراء الوحدة الإسلاميّة التي يدعو إليها من بنات أفكاره، ثمّ يتواضع قليلًا ويعتبرها مجرّد توارد خواطر واتّفاق مع آراء الشيخ محمّد عبده فيقول: "وهل لمشرب الشيخ محمّد عبده وآرائه مظهر عرفت به الأقطار غير مجلّة "المنار"؟ بل نقول إنّ هذا المشرب ممّا اتّفق فيه رأينا مع رأي الإستاذ ،رحمه الله تعالى، ولم يكن ما تلقّيناه عنه، وما لنا فيه من القول والسعي أكثر ممّا كان له، ومن الشواهد على ذلك ما كتبناه في فاتحة العدد الأوّل من "**المنار**"، وفي أوّل نبذة فيه بعد الفاتحة، ولم نكن يومئذ تلقّينا درسًا، ولا بسطنا معه في هذه المسألة وأمثالها قولًا"[4] .

ولربّما كان باستطاعة الشيخ محمّد رشيد رضا إقناع الملإ بهذا الاستقلال الفكريّ لو لم تُنشر هذه الآراء في جريدة "**العروة الوثقى**" بما يزيد عن أربعة عشر عامًا قبل صدور مجلّة "**المنار**"، والتي يعترف لنا بأنّها حوّلت مجرى تفكيره إلى الطريق القويم في فهم الدين[5].

لقد جاء في إفتتاحيّة العدد الأوّل من جريدة "**العروة الوثقى**" ما يلي: "وبما أنّ مكّة المكرّمة مبعث الدين، ومناط اليقين، وفيها موسم الحجيج العامّ في كلّ عام، يجتمع إليه الشرقيّ والغربيّ، ويتآخى في مواقفها الطاهرة الجليل والحقير، والغنيّ والفقير، كانت أفضل مدينة تتوارد أفكارهم (المسلمون) ثمّ تنبثّ إلى سائر الجهات والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل"[6]. وتضيف "**العروة الوثقى**"، في مقالة ظهرت في العدد الخامس، تعليقها على هذه النقطة فتقول: "ويجعلون لهم مراكز في أقطار مختلفة يرجعون إليها في شؤون وحدتهم، ويأخذون بأيدي العامّة إلى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الأثر، ويجمعون أطراف الوشائج إلى معقد واحد يكون مركزه الأقطار المقدّسة وأشرفها معهد بيت الله الحرام، حتّى يتمكّنوا بذلك شدّ أزر الدين وحفظه من قوارع العدوان"[7]. ويقرّ لنا بنفسه بأنّ "**العروة الوثقى**" دعت المسلمين إلى الوحدة الصحيحة فيقول في مقالة له عنوانها "الجامعة الإسلاميّة": وقد بدآ (جمال الدين الأفغاني ومحمّد عبده) بباب السياسة، فكتبا وخطبا ما شاء الله أن يكتبا ويخطبا، فلم تأتِ النتيجة كما طلبا ورغبا. ثمّ استقرّ رأيهما على أنّ هذه الأمّة بالدين وُجِدت وتكوّنت، وبالدين سادت وعزّت...فأنشأ جريدة "**العروة الوثقى**" لدعوة المسلمين إلى الوحدة الصحيحة، وأنْ يجعلوا إمامهم الأعظم القرآن الكريم.أرشدت هذه الجريدة العلماء في إماتة البِدَع وإحياء السُنَن، كما أرشدت الملوك والأمراء ولا سيّما المختلفين في المذاهب، كأهل السنّة والشيعة، إلى الاتّحاد والاتّفاق، وأن لا يجعلوا الخلاف الفرعيّ في الدين من أسباب التفرّق

---

[1] **المنار** ج ١ (١٨٩٨) ص ٣٠٥.

[2] **المنار** ج ٢ (١٨٩٩) ص ٣٤٥.

[3] **المنار** ج ٣ (١٩٠٠) ص ٣٤٤.

[4] **المنار** ج ١٧ (١٩١٤) ص ٣١٨.

[5] **تاريخ الأستاذ الإمام**، ص ٩٩٧، وأعلاه ص ٥ هامش رقم ٢.

[6] **العروة الوثقى**، مطبعة التوفيق، ١٩٣٦، ص ٨.

[7] نفس المصدر، ص ١٢٠.

والإنقسام الذي يقضي على الجميع"[١]. وفي مقالة أخرى عنوانها "ماذا نعمل" يؤكّد الشيخ محمّد رشيد رضا اعتقاد الأفغاني وعبده بأنّ "هذه الأمّة بالدين وُجِدت وتكوّنت، وبالدين سادت وعزّت" فيقول بأنّه "لا يرجع إلينا مجدنا إلاّ بالدين"[٢]. ولعلّه أضاف على ما كان يؤمن به كلٌّ من الأفغاني و عبده عنصرًا جديدًا هو عنصر المال الذي يذكر بأنّه "ركنُ كلّ إصلاح وتقدّم"[٣]. لقد وجّه نداءه الإصلاحيّ إلى الحكومات الإسلاميّة المستقلّة، وخاطبها قائلا: "إنّ الخطاب في الإصلاح الإسلاميّ، والتكليف في القيام بمقدّماته، والدعوة إلى الشروع فيه، إنّما هو موجّه نحو زعماء وعقلاء تلك الحكومات الأربع المستقلّة– العثمانيّة والفارسيّة والأفغانيّة والمراكشيّة"[٤]، كما أنّه مُوَجَّه إلى الأمّة، فيقول: "ووجهة "**المنار**" في الدعوة إلى الإصلاح الإسلاميّ الأمّة الإسلاميّة دون حكوماتها"[٥]. ولربّما أدرك هذا التناقض الواضح بين الرأيين المتقدّمين، فاستدرك وحاول التوفيق بينهما بدون استنكار أو تفضيل لأيّ منهما: "مِن المُجْمَع عليه أنّ الأمّة في أشدّ الحاجة إلى إصلاح يحفظ لها ما بقي من تراث أسلافها، ويؤهّلها لاسترداد ما سُلِب منه... ولكنّ الإصلاح إذا بدأ في الأمّة دون الحكومة، فإنّما يتعدّى أثره للحكومة بعد زمن طويل. وإذا بدأ في الحكومة أوّلًا يظهر أمره في الأمّة في وقت قريب"[٦].

كانت استعاذة الأستاذ الإمام الشيخ محمّد عبده التالية: "أعوذ بالله من السياسة، ومن لفظ السياسة، ومن معنى السياسة، ومن كلّ حرف يُلفَظ من كلمة سياسة، ومن كلّ خيال يخطر ببالي من السياسة، ومن كلّ أرض تُذكَر فيها السياسة، ومن كلّ شخص يتكلّم أو يتعلّم أو يجنّ أو يعقل في السياسة، ومِن ساس ويسوس، وسائس ومَسوس"[٧] نبراسًا له في هذه الحقبة من حياته السابقة للانقلاب العثمانيّ. ولكنْ على ما يظهر من كتاباته بعد إعلان الدستور بأنّه كان يعمل سرًّا على تقويض حكم السلطان عبدالحميد الإستبداديّ، "ثمّ حدث في سنة ١٣٢٦ (١٩٠٨) الإنقلاب العثمانيّ الذي كنّا نسعى إليه"[٨]. ويخبرنا عن اشتراكه في تأسيس جمعيّة لتحقيق هذا الغرض فيقول: "فأسّسنا جمعيّة "الشورى العثمانيّة" لأجل جمع كلمة العثمانيّين على استبدال حكومة الشورى العثمانيّة بحكومة المستبدّين، لعلمنا أنّ جمعيّة "الاتّحاد والترقّي" هي خاصّة بالمسلمين"[٩]، وتحدّثنا بأنّ نشاط هذه الجمعيّة من أجل هذا السعي لم يكن مقصورًا على مصر وحدها، التي كانت أنئذ مَوئلًا وملاذًا للأحرار، بل تعدّاها إلى قلب الآستانة ومناطق أخرى حيث كانت ترسل مناشيرها، "ولولا أنّنا أنشأنا جمعيّة سياسيّة سريّة لمجاهدة استبداد عبدالحميد، وجعلنا لها جريدة خاصّة سمّيناها باسمها "الشورى العثمانيّة" وكنّا نعزز الجريدة بمنشورات سرّيّة يوزّعها عمّال مخصوصون في الآستانة والروملّي والأناضول بنفقة من الجمعيّة، لما رضينا بذلك التنديد الإجماليّ في "**المنار**"... وَمن كان في شكٍّ من مجاهدتنا لعبد الحميد في عهد استبداده بأشدّ ممّا كتبناه في "**المنار**" بعد خلعه فليطلب منّا بعض أعداد جمعيّتنا"[١٠]. وكانت هذه الجمعيّة تطالب السلطان عبدالحميد بإعادة "مجلس المبعوثان" وإشراك الأمّة في الحكم. وَرَدَ ذلك أثناء حديثه عن محاولة أحمد رضا، أحد مؤسّسي جمعيّة "الاتّحاد والترقّي"، الاتصال بجمعيّتهم لتوحيد الجهود ضدّ

---

[١] **المنار** ج ٢ (١٨٩٩) ص ٣٣٧–٣٣٨.

[٢] **المنار** ج ٢ (١٨٩٩) ص ٤٣٦.

[٣] **المنار** ج ٤ (١٩٠١) ص ٨٠١.

[٤] **المنار** ج ٢ (١٨٩٩) ص ٢٠٢.

[٥] **المنار** ج ٢ (١٨٩٩) ص ٣٨٦.

[٦] **المنار** ج ٢ (١٨٩٩) ص ٥٢٩–٥٣٠.

[٧] **المنار** ج ٤ (١٩١١) ص ٦.

[٨] **المنار** ج ١٤ (١٩١١) ص ٤٣.

[٩] **المنار** ج ١٢ (١٩٠٩) ص ١٣.

[١٠] **المنار** ج ١٢ (١٩٠٩) ص ٧٠٦.

الحكم الإستبداديّ فيقول: "وقَدِمَ أحمد رضا بك من باريس إلى مصر، فرغب إلينا أنّ نضمّ جمعيّتنا إلى جمعيّة "الاتّحاد والترقّي"، فأبى مجلس الإدارة ذلك عليه. وكان ممّا قلته له إنّ تعدّد الجمعيّات مع وحدة الغاية والمقصد لا يُعَدُّ تفرّقًا ولا يُحدِث ضعفًا، وإنّنا نرى أنّه لا نجاح للعثمانيّين إلاّ باتّفاق عناصرهم على المطالبة بالدستور. قال: إنّ قانون جمعيّتنا لا يمنع قبول غير المسلمين فيها، نعم، وإنّنا لا نشكو من القانون، ولكن من عدم تنفيذه، فما قانونكم... إلّا كقوانين السلطة: حبر على ورق. لو نفّذ السلطان قوانين الدولة على علّاتها لما طالبناه بـ"مجلس المبعوثان" لإشراك الأمّة في الحكم"[1].

معهد الدعوة والإرشاد

مكث الشيخ محمّد رشيد رضا، بعد هجرته إلى مصر، إحدى عشرة سنة فيها، ولم يغادرها مطلقًا. فكان الانقلاب العثمانيّ نقطة تحوّل في مجرى حياته، حتّى إنّه رحل إلى الأقطار الإسلاميّة، في السنوات العشر التالية للانقلاب، خمس مرّات، أقصرها الرحلة الحجازيّة بعد إعلان "الثورة العربيّة الكبرى" سنة ١٩١٦، وأطولها مدّةً رحلة الآستانة التي قام بها في السنة الثانية للانقلاب العثمانيّ. لقد أدرك صاحب "**المنار**" بثاقب نظره، بعد اختبار دام عشر سنوات عاملًا في حقل الصحافة، بأنّ مجرّد إصدار مجلّة إسلاميّة لن يؤدّي إلى الغاية المرجوّة في الوحدة والاستقلال، وبأنّها ليست كافية لاستنهاض الهمم والحثّ على النهوض واليقظة. ولذلك أخذ يتطلّع إلى أفق عمل أكثر شمولًا، وأعمّ منفعة، فتولّدت عنده فكرة إنشاء مدرسة للدعوة والإرشاد. ويخبرنا بأنّ هذه الفكرة كانت تراوده منذ الصغر تشبّهًا بالمرسلين الأميركان، "وكنت في أيّام طلبي العلم في طرابلس الشام أتردّد، بعد الخروج من المدرسة، إلى مكتبة المبشّرين الأميركانيّين أقرأ جريدتهم الدينيّة، وبعض كتبهم ورسائلهم، وأجادل قسوسهم ومعلّميهم، وأتمنّى لو كان للمسلمين جمعيّة كجمعيّتهم ومدارس كمدارسهم"[2]. اختمرت هذه الفكرة ورسخت في رأسه، وكان رسوخها شديدًا، لدرجة أنّ جميع الوعود العرقوبيّة التي منّاه بها رجال جمعيّة "الإتحاد والترقّي" الحاكمة، وجميع الصعوبات والعراقيل التي واجهها، لم تستطع زعزعة إيمانه بصحّتها وضرورة إنشائها.

لقد رحل في العام الثاني لإعلان الدستور إلى الآستانة، عاصمة الدولة، للسعي في أمرين عظيمين: إنشاء معهد علميّ إسلاميّ، وحُسن التفاهم بين عنصرَي الدولة الأكبرين– العرب والترك[3]. ويفسّر الغاية البعيدة من هذين الأمرين بقوله: "أحدهما (إنشاء معهد إسلاميّ) وهو أجلّهما خدمة للدين الإسلاميّ ولجميع المسلمين، وثانيهما (الوفاق بين الأتراك والعرب) خدمة للدولة العليّة من حيث هي حكومة الدستور القائم على أساس العدل والمساواة ولعنصرَي الأمّة العثمانيّة الكبيرَين"[4]. وبعد زيارات ومقابلات عديدة لأعضاء الحكومة العثمانيّة، وأركان جمعيّة "الإتحاد والترقّي"، وشيخ الإسلام، طيلة [طوال] سنة في الآستانة، تكلّلت جهوده بالموافقة على اقتراحه، وصدر أمر بإنشاء "جمعيّة للعلم والإرشاد"، على أن يكون لها دار باسمها "يتربّى ويتعلّم في هذه المدرسة طائفة من الطلاّب على نفقة المدرسة، فهي تنفق عليهم، لا يُكلَّفون طعامًا ولا شرابًا ولا لباسًا ولا كتابًا. وممّا يُشترَط فيهم أن يكون لهم إلمام باللغة العربيّة والنحو والفقه، وأن تكون سيرتهم حسنة في أخلاقهم وآدابهم وعبادتهم. وسيكون من الشدّة في المحافظة على الأخلاق والفضائل في المدرسة أنّ الكذب يكون موجبًا للطرد منها. ويُشترَط فيها أيضًا حفظ القرآن، ولكن يُتَسامَح في هذا الشرط الآن، ويكون للمدرسة سنة تمهيديّة لحفظ القرآن ولبعض العلوم والفنون التي تُقرَأ، ولكنْ في المدارس الإبتدائيّة. وإدارة المدرسة هي التي تختار هذا القسم

[1] **المنار** ج ١٢ (١٩٠٩) ص ١٤.

[2] **المنار** ج ١٤ (١٩١١) ص ٤٢.

[3] **المنار** ج ١٢ (١٩٠٩) ص ٩٥٦، وج ١٣ (١٩١٠) ص ١٤٥

[4] **المنار** ج ١٢ (١٩٠٩) ص ٩٥٦.

الداخليّ من طلاّب المدرسة، وتفضّل بعضهم على البعض بالامتحان"[1]. عارَضَ فكرة وضع المدرسة تحت إشراف شيخ الإسلام، وأبى أن تكون رسميّة أو شبه رسميّة. فجدّد مساعيه مع ناظر المعارف وأركان الحكومة والصدر الأعظم، ولم يفقد الأمل من جعلها مستقلّة، فكتب يقول: "وقد طال الأمد على مُنتظِرِي خبر تأسيس (دار العلم والإرشاد) حتّى يئس أشدّهم غيرة وكتبوا إلينا ينصحون بترك السعي لها في هذه العاصمة. ولو يئسنا كما يئسوا لعدنا أدراجنا كما اقترحوا، ولكنّ اليأس مرض وبائيّ في بلادنا، ونحمد الله تعالى أنْ نجّانا منه، فلم يجد إلى قلبنا سبيلاً[2]. فعاد إلى مصر وكلّه رجاء أن يُعدَّل قرار الحكومة القاضي بوضع المعهد تحت إشراف شيخ الإسلام، ويُؤخَذ اعتراضه بعين الإعتبار: "وأقول الآن إذا لم يُعدِّل مجلس الوكلاء القرار كما وعد شيخ الإسلام وناظر المعارف، فالمسلمون لا يستغنون عن جمعيّة أخرى كهذه الجمعيّة يكون مركزها مصر، لأن جمعيّة الآستانة لا تأتي بالفائدة المطلوبة إذا كانت رسميّة أو شبه رسميّة"[3]. ولم يدرك عرقوبيّة وعود الآستانة إلّا بعد عودته من رحلته إلى الهند، فألّف "جمعيّة الدعوة والإرشاد"، وأسّس لها مدرسة باسم "دار الدعوة والإرشاد"، وكان افتتاحها في هلال عام ١٣٣٠. هـ (١٩١٢)[4]. كان نصّ النظام الأساسيّ لجمعيّة الدعوة والإرشاد هو نفس النظام الذي وُضِع لجمعيّة العلم والإرشاد، وهو الآيتان ١٠٣ و ١٠٤ من سورة آل عِمران: (واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تَفرّقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبيّن لكم الآيات لعلّكم تهتدون. ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)[5]. وكانت مبادئهما متشابهة روحًا وجوهرًا إن لم يكن نصًّا في بعض الأحيان. ونورد هنا مبادىء كلّ من الجمعيّتين.

مبادىء "جمعيّة العلم والإرشاد"

المادة الأولى– تأسّست في دار السعادة جمعيّة باسم "جمعيّة العلم والإرشاد".

المادة الثانية– مقصد هذه الجمعيّة الجمع بين التربية الإسلاميّة وتعليم العلوم الدينيّة والدنيويّة والتصنيف فيها. وتتوسّل إلى ذلك بإنشاء مدرسة كلّيّة في دار السعادة باسم "دار العلم والإرشاد" لتخريج العلماء والمرشدين.

المادة الثالثة– لا تشتغل الجمعيّة بسياسة الدولة العليّة الداخليّة ولا الخارجيّة، ولا بسياسة غيرها من الدول، ولكنّها تراعي القانون الأساسيّ وتؤيّده[6].

مبادىء "جماعة الدعوة والإرشاد"

الأصل الأوّل– تألّفت في مصر القاهرة جمعيّة باسم "جماعة الدعوة والإرشاد".

الأصل الثاني– مقصد هذه الجمعيّة إنشاء مدرسة كلّيّة باسم "دار الدعوة والإرشاد" في مصر القاهرة لتخريج علماء مرشدين قادرين على الدعوة إلى الإسلام، والدفاع عنه، والإرشاد الصحيح، وإرسالهم إلى البلاد الشديدة الحاجة إليهم على قاعدة الأهمّ قبل المهمّ.

---

[1] **المنار** ج ١٣ (١٩١٠) ص ١٤٨-١٤٩.

[2] **المنار** ج ١٣ (١٩١٠) ص ٤٦٥.

[3] **المنار** ج ١٣ (١٩١٠) ص ٧٥٢.

[4] **المنار** ج ١٥ (١٩١٢) ص٩-١٥.

[5] **المنار** ج ١٣ (١٩١٠) ص ٤٦٦، وج ١٤ (١٩١١) ص ١١٦.

[6] **المنار** ج ١٣ (١٩١٠) ص ٤٦٦-٤٦٧.

الأصل الثالث– يُرسَل الدعاة إلى البلاد الوثنيّة والكتابيّة التي فيها حرّيّة دينيّة، ولا يُرسَلون إلى بلاد الإسلام إلّا حيث يدعو المسلمون جهرًا إلى ترك دينهم، والدخول في غيره، مع عدم وجود علماء مُرشِدين يدفعون الشبهات عن الإسلام، ويبيّنون حقيقته لأهله.
الأصل الرابع– لا تشتغل هذه الجماعة بالسياسة مطلقًا، لا بالسيسة المصريّة، ولا بسياسة الدولة العثمانيّة، ولا بسياسة غيرها من الدول[١].

أَقفلَت "دار الدعوة والإرشاد" أبوابها عندما توقّفت الحكومة المصريّة عن تقديم المساعدات الماليّة لها في سنة ١٩١٦ أثناء الحرب العالميّة الكبرى الأولى.

لم أجد مقياسًا لتعليل التناقض البيّن الذي كان يظهر، في معظم الأحيان، بين العدد والعدد من "المنار"، إن لم يكن في المقالة الواحدة، سوى المقياس الذي قدّمه لنا في "لمنار" عند انتقاده لعبيدالله مبعوث إيدين ومحرّر جريدة "العرب" الصادرة في الآستانة باللغة العربيّة. قال: "ومن غرائب هذا الرجل أنّه يجمع، في جريدته، بين الأضداد والنقائض، فيمدح الشيء ويذمّه مطلقًا، ويثبت الشيء وينفيه كذلك، ويحثّ على الأمر وينفّر عنه. فإذا اعترِض عليه في بعض ما يكتبه، أمكنه أن يدّعي لنفسه الطرف الآخر، ويستدلّ عليه ببعض، فهو في مشربه وحاله وعقله وأخلاقه ليس أهلًا لأن يناظر أو يجادل"[٢]. ولا أريد هنا أن أدع مجالًا للشكّ بأنّي أتحامل على الشيخ محمّد رشيد رضا وأقول بأنّ هذا الوصف ينطبق عليه، لكنّني أعتقد بأنّه كان بذلك يطبّق سياسة الاحتفاظ بخطّ الرجعة حيث كان يظهر بوجهين. المثل الأوّل هو موقفه من السلطان عبدالحميد الثاني. يقول في العدد الأوّل من "المنار"، عند حديثه عن إنشاء سكّة حديد بين بور سعيد والبصرة: "وأمّا هذا المشروع بخصوصه فلا ننكر عظيم فائدته، لكنّنا نفوّض النظر لحكمة سيّدنا ومولانا السلطان الأعظم، أيّده الله تعالى، ولوزرائه الصادقين، فإنّ لهم من المعرفة بمنافع الأمّة ووسائل تقدّمها ما ليس لنا... وإنّنا نفتخر بما لمولانا أمير المؤمنين من العناية بأمر المكاتب والمدارس، حتّى إنّه أنشأ من جيبه الخاصّ الكثير منها"[٣]. قارِنْ هذا القول بما كتبه بعد خلع عبد الحميد، ولومه الجرائد المصريّة المؤيّدة له على إسرافها في مدحه: "أمّا أنا فأقول إنّ كلًّا من **"المؤيّد"–"واللواء"**– ومثلهما **"الأهرام"** – قد أضرّ المسلمين والعثمانيّين عامّة، والمصريّين خاصّة، بما جرَيْنَ عليه من إسراف في مدح عبدالحميد والدفاع عنه"[٤].
ويعود فيتّهم، في نفس المقالة، جريدة **"المقطَّم"** بتلفيق الأخبار: "إنّ جمهور المسلمين كانوا يحملون ذمّ **المقطّم** لسياسته (سياسة عبدالحميد) وإدارته وتنديده به على سوء النيّة، ويظنّون أنّ أخباره غير صادقة[٥]. ولولا تلك الردود عليه لكان نفعُ ما نشره عظيمًا، ولقد كان يكون النفع أعظم لو كان **المؤيّد** و**اللواء** ينشران مثل تلك الأخبار ويبنون عليها مطالبة السلطان بالإصلاح، مشايعة لطلّابه العثمانيّين مع الإعتدال". وبينما تراه ينعت الوزراء بالصادقين في المجلّد الأوّل، تنقلب الآية في المجلّد الثاني عشر، فيقول: "جئت مصر وأنا أُحسِن الظنّ بالسلطان دون من يحيط به من الوزراء والقرناء والخصيان، وأسيء الظنّ بطلّاب الإصلاح من الأحرار"[٦].
وأخذ يكيل للسلطان عبد الحميد الاتّهامات يمينًا وشمالًا بلا حساب: "إنّ محمّد الخامس في بني عثمان كعمر بن عبد العزيز في بني

[١] **المنار** ج ١٤ (١٩١١) ص ١١٦.
[٢] **المنار** ج ١٣ (١٩١٠) ص ٥٤٩.
[٣] **المنار** ج ١ (١٨٩٨) ص ٥.
[٤] **المنار** ج ١٦ (١٩١٣) ص ٩٥٠.
[٥] **نفس المصدر**
[٦] **المنار** ج ١٢ (١٩٠٩) ص ٣.

أميّة، كما أنّ عبد الحميد شرّ من يزيد"[١]، بينما كان قبلًا يبتهل إلى الله أن ينصره ويؤيّده لاجتهاده في جمع كلمة المسلمين، فيقول: "ثمّ لم يكن لاسم الخلافة شأن في آل عثمان حتّى جاء مولانا وخليفتنا الحالي السلطان عبد الحميد خان، أيّده الله تعالى، فأحيى هذا اللقب الشريف، واجتهد في جمع كلمة المسلمين"[٢]، وكان ينعته فيما مضى بالحكمة والتفوّق العقليّ ومقاومة السياسة الأوروبيّة فيقول: "أَوَ لم يكفِهم أنّ سلطانهم وإمامهم هو مقاومٍ بسياسته وحكمته لأوروبّا كلّها، وأنّه قد أَوقفَ بقواه العقليّة الباهرة من تيّارات الحوادث، وسكّن من عواصف الكوارث ما تعجز عنه الجماعات بل الأمم، حتّى قال رئيس ساسة الإنكليز الذين يفوقون ساسة كلّ الأمم، وهو المستر غلادستون الشهير: "إنّ السياسة الحميديّة تغلّبت على السياسة البريطانيّة في المسألة الأرمنيّة"، والفضل ما شهدت به الأعداء واعترف به الخصماء"[٣]، فأصبحت سياسة عبد الحميد سيّئة فاسدة في عرف محمّد رشيد رضا، فيقول: "كانت السياسة الحميديّة في دولتنا شرّ سياسة أُخرِجت للناس، لأنها بُنِيَت على أساس الظنّة والريبة في الأمّة ولا سيّما في المتعلّمين من أفرادها"[٤]. ويذكر لنا أنّه أوّل من حذّر رجال الإنقلاب العثمانيّ من إهانة السلطان، وبأنّه نصحهم الإستفادة من تجاربه في الحقل الخارجيّ: "وقد كنت أنا ممّن حذّر من التعدّي على شخص السلطان، ودعا إلى الإستفادة من تجاربه في الأمور الخارجيّة في أوّل مقالة كتبتها بعد إعلان الدستور"[٥]. ولقد قال في تلك المقالة: "والحذر الحذر من عواقب نشوة الظفر، الحذر الحذر من إهانة شخص السلطان، والتسلّق إلى عرشه بالبغي والعدوان... والإستفادة من تجاربه في الأمور الخارجيّة"[٦].

أمّا المثل الثاني فهو موقفه من الإتّحاديّين فيقول فيهم: "فأنا لم أكن خصمًا للإتّحاديّين، بل كنت صديقًا لهم قبل الدستور وبعده، وكنت أوّل من دَافَع عنهم... ولمّا شاع أمر عبثهم في الدين وتعصّبهم على العرب... ذهبت إلى الآستانة... وعلمت بالإختبار الطويل أنّ كلّ ما قيل فيهم دون الواقع"[٧]. وهنا مجال للتساؤل فيما إذا كان فعلًا صديقهم قبل إعلان الدستور. إذا كانت المهاجمة والنعت بالفساد، والاتّهام بالعمل ضد مصلحة الدولة والأمّة تُعَدّ صداقة، فقد كان حقًّا صديقهم، فيقول عنهم: "وكلّنا على علم بحزب تركيا الفتاة الذي تألّف لمقاومة ذاته، السلطان الأعظم عبد الحميد الثاني، الكريمة، لأنّ سياسته غير مُرْضِية عندهم. وقد شغل فساد هذا الحزب الضارّ أفكار جلالته، فأخذ جزءًا غير قليل من وقته الثمين، ولولاهم لصُرِف في مصلحة الدولة والأمّة"[٨]. وعندما أدرك محمّد رشيد رضا أنّ جميع وعود الإتحاديّين في تأسيس دارٍ للدعوة والإرشاد كانت برقًا خُلَّبًا وسرابًا، هاجمهم بشدّة، فقال: "جاء بعده (بعد عبد الحميد) الإتحاديّون، فكانوا شرًّا منه، ومن قبله وبعده سياسة... إنّ عبد الحميد حفر اللغم تحت بلاد الأناضول، والإتحاديّون وضعوا فيه البارود وأضرموا النار"[٩]. ويظهر التناقض جليًّا واضحًا في موقفه من الشريف حسين، فتارة يلقّبه بسيّد العرب، وطورًا ينعته بالخائن. وللدلالة على ذلك نورد الإقتباسات التالية."وجملة القول إنّ منشور الشريف الذي كان قبل استقلاله في الحجاز

---

[١] **المنار** ج ١٢ (١٩٠٩) ص ٤٦٨.
[٢] **المنار** ج ١ (١٨٩٨) ص ٢٧٥.
[٣] **المنار** ج ١ (١٨٩٨) ص ٩٨.
[٤] **المنار** ج ١٣ (١٩١٠) ص ٥٩٤.
[٥] **المنار** ج ١٢ (١٩٠٩) ص ٤٦٧.
[٦] **المنار** ج ١١ (١٩٠٨) ص ٤٢١.
[٧] **المنار** ج ١٩ (١٩١٦) ص ٢٤٤.
[٨] **المنار** ج ٣ (١٩٠٠) ص ١٩٧.
[٩] **المنار** ج ١٦ (١٩١٣) ص ٤٧٣.

أعظم الأمراء العثمانيّين، هو أعظم الحجج على ملاحدة الإتحاديّين، كما أنّه تأييد من سيّد العرب لطلاّب الإصلاح من العرب"[١]، وقوله: "نشرَتِ الجرائد المصريّة اليوميّة، في آخر الشهر الماضي، منشور شريف مكّة وأميرها الذي وجهّه إلى العالم الإسلاميّ. وإنّه لمنشور كُتِبَ بمداد الحكمة وأصالة الرأي وشرف الغاية"[٢]. ويدور الدولاب، فيتنصّل من أقواله السابقة عن الشريف حسين، ويضع اللوم على المراقبة في عدم التصريح والجهر ضدّ شريف مكّة وثورة الحجاز، فيقول: "وكراهة العالم الإسلاميّ كلّه لثورة الحجاز وغير هذا ممّا لم يكن التصريح به ممكنًا في عهد المراقبة"[٣]. ولعلّ المراقبة فرضَتْ عليه ما قاله حول اعتبار الشريف حسين من أهل الحلّ والعقد، إليك رأيه: "وبذلك عمل صاحب المنشور (يقصد الشريف حسين)، هو ومَن معه من أهل الحجاز. فهم في مقدّمة أهل الحلّ والعقد في الأمّة، ولو لم يكن معه غير أسرته الهاشميّة وعصبتهم وأتباعهم من العرب، لكفى بهم أهل حلّ وعقد في مهد الإسلام، وأفضل بلاد الأرض...وقد صرّح في هذا المنشور بأنّه إذا ظهر له خطأُه في اجتهاده هذا يرجع عنه. وكفى بذلك حجّة على المسلمين"[٤]. وكعادته ينقلب على الشخص، فتتغيّر المفاهيم عنده، فتراه يقول عن البيعة للشريف حسين بأنّها غير شرعيّة لأنّها أُخذت تحت الضغط والإكراه، وعن أهل الحجاز بأنّهم ليسوا اهل حلّ وعقد، فيقول: "كون بيعة أهل الحجاز له (للشريف حسين) لا تصحّ لأنّهم ليسوا أهل الحلّ والعقد في الأمّة الإسلاميّة، وهم خاضعون لسلطته وحكمه غير أحرار في اختيارهم"[٥]. هو الذي كان يمنح الألقاب، وهو الذي كان ينتزعها. إنّه صاحب رجاء خاب أمله في السلطان عبد الحميد والإتّحاديّين والشريف حسين على غير انتظار، ولو لم يَخِبْ هذا الرجاء لما عارضهم. هذه، جميعها، مواقف سياسيّة كان له اجتهاد في اتّخاذها، مؤيّدًا أو معارضًا، كما كانت تدعو إليها الحاجة.

كانت الغاية التي ينشدها الشيخ محمّد رشيد رضا، من جميع كتاباته، هي الوحدة الإسلاميّة حتّى لو كانت من قِبَل إنكلترا، على شرط أن تعتنق الإسلام، فيقول: "بل لو أنّ دولة حكيمة كإنكلترا اعتنقت الإسلام، وأقامت شريعته لتسنّى لها امتلاك باقي الشرق وأفريقيا"[٦]. وكان يؤمن بعدم نزع الخلافة من العثمانيّين، وبأنّه ليس في المسلمين مَن ينازع الأتراك خلافة المسلمين، فيقول في مقالة عنوانها "رَبَّنا أَطَعْنا سادَتَنا وكبراءَنا فأَضلُّونا السبيلا": "نقول قبل الدخول في البحث (بحث الخلافة والخلفاء) إنّ كلّ من يحاول إشراب الأفهام وجوب نزع الإمامة من بني عثمان فهو عامل على الإجهاز على السلطة الإسلاميّة ومحوها من لوح الوجود"[٧]. وفي مقالة "دعوى الخلافة" يقول: "ليس في المسلمين من ينازع الترك بالفعل لأجل لقب الخلافة"[٨]. ثمّ يحدّد لنا الزمن الذي هجر فيه فكرة الخلافة العثمانيّة، وإيمانه بالإستقلال، فيقول: "قد كان أوّل سعي مشترك مع جماعة الإستقلال التامّ... مذكرة كتابيّة لرئيس جمهوريّة الولايات المتحدة في إثر ظهوره في ميدان العمل وندائه بحرّيّة الأمم وقّعها كاتب هذا والشيخ كامل القصّاب واسكندر بك عمّون والدكتور مشّاقة والدكتور شهبندر وخالد بك الحكيم، بيّنّا فيها أنّ البلاد السوريّة وسائر البلاد العربيّة لا ترغب إلّا في الإستقلال التامّ ولا تقبل غيره باختيارها، وأنّها إذا استُفتيَتْ في ذلك وكانت حرّة في الجواب، فإنّ سوادها الأعظم يصدّق ما نقوله عنها إذ نحن من

[١] **المنار** ج ١٩ (١٩١٦) ص ٢٤٤.
[٢] **المنار** ج ١٩ (١٩١٦) ص ٢٤١.
[٣] **المنار** ج ٢٢ (١٩٢١) ص ٤٤٨.
[٤] **المنار** ج ١٩ (١٩١٦) ص ٣٧٣-٣٧٤.
[٥] نفس المصدر
[٦] **المنار** ج ٢ (١٩١٦) ص ٣٢٤.
[٧] **المنار** ج ١ (١٩١٦) ص ٢٥٧.
[٨] **المنار** ج ٦ (١٩١٦) ص ٩٥٧.

أعلم أهل البلاد بحال أمّتهم"[1]. ولكنّ إيمانه بإستقلال الأمّة العربيّة ابتدأ قبل هذا السعي. في تعليق على المؤتمر العربيّ الذي عُقِد بباريس سنة ١٩١٣ فيقول:

"وقد كان يجب على الأمّة العربيّة أن تهبّ من رقدتها، إنْ لم أَقُلْ إنّ هذا كان يجب عليها منذ أن تغلغلت السلطة الحميديّة التدميريّة في ولاياتها... وعهد الإتحاديّين الذي هو أشرّ منه وأضرّ عهد الوحدة والعمل"[2]. ويخبرنا بأنّ الأستاذ الإمام الشيخ محمّد عبده "هو الذي أَرجعَ بعض المستشرقين عن السعي لإنشاء دولة عربيّة لاعتقاده أنّ التفريق بين الترك والعرب يضعف الفريقين، ويسهّل على الدول الطامعة محو الدولة الإسلاميّة من الأرض"[3].

قد يجد الباحث تناقضًا بيّنًا في مواقف الشيخ محمّد رشيد رضا السياسيّة، ولكنّه لا شكّ يجده راسخ الإيمان بأهليّة الدين الإسلاميّ للتقدّم واستنهاض الهمم، واستعادة الأمجاد الغابرة، كما نراه في الفقرة التالية من مقالة عنوانها "أوروبّا والإصلاح الإسلاميّ": "إن الدين الإسلاميّ دينُ سلطة وسياسة، لا دين تعبُّد وتحنُّث فقط، وأصوله أن يسعى أربابه بأن تكون لهم السلطة على العالم كلّه لا على المسلمين وحدهم كما يظنّ البعض. ولكنّ هذا الأمر من وظائف الخلفاء، لا من وظائف العامّة، فترشدها إليها الجرائد والخطباء، وتُؤلَّف لأجله الجمعيّات. وإنّنا نعتقد أنّ الله تعالى ما كلّفنا بنشر ديننا في جميع العالم، ورفع لواء سلطتنا على رؤوس جميع الشعوب، لأجل الأبهّة والفخفخة، وتمتّع الملوك والأمراء بالسلطة المطلقة واستعباد الناس وإذلالهم، وإنّما أمرنا الله باستعمار الأرض وإصلاح الناس. ولذلك ذكر في أوّل الآيات التي نزلت في الإذن بالقتال، هذا المقصد الشريف. فقال عزّ من قائل"[4]. أُذِنَ للذين يُقاتلون بأنّهم ظُلموا وإنّ الله على نصرهم لقديرٌ، الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلّا أن يقولوا ربُّنا اللهُ ولولا دَفْعُ اللهِ الناسَ بعضَهُم ببعضٍ لهُدِّمَت صوامعُ وبيعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكَرُ فيها اسم الله كثيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن ينصرُه، إنّ الله لقويٌّ عزيزٌ، الذين إنّ مَكَّنّاهُم في الأرض أقاموا الصلاة وأَتَوا الزكاة، وأمروا بالمعروف وَنَهَوا عنِ المُنكَرِ واللهُ عاقبةُ الأمورِ[5].

[1] **المنار** ج ٢٢ (١٩٢١) ص ٤٦٠.

[2] **المنار** ج ١٦ (١٩٠٣) ص ٣٩٢.

[3] **المنار** ج ١٢ (١٩٠٩) ص ١٠.

[4] **المنار** ج ٣ (١٩٠٠) ص ٢٤٢-٢٤٣

[5] سورة الحجّ رقم ٢٢ الآية ٣٩-٤١.